مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (03) ديسمبر 2022 ص ص 925-943

مؤلفات المغاربة في بلاد المشرق وإسهامها في كتابة الموسوعات التراجمية المشرقية في العصر الوسيط

"كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان أنموذجا"

The works of maghreban in the levant and their contribution to writing oriental translation encyclopedias in the middle age

"The book of the wafayat al-ayʿne by ibn khallikân as a model"

خديجة، طاهر منصور*

[1] جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر).

البريد الالكتروني المهني: taharmansour.khadidja@univ-oran1.dz

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/06/30	2022/10/06	2022/12/01

الملخص: يهدف هذا البحث إلى دراسة إسهام المصادر المغربية في المؤلفات المشرقية ودورها في كتابة التاريخ الإسلامي العام، وبُغية الوصول إلى نتائج البحث استخدمنا المنهج التاريخي السردي والإستنباطي بحكم طبيعة الموضوع الذي يندرج ضمن تاريخ التراجم.

تمت الاستعانة بإحدى الموسوعات المشرقية التراجمية الضخمة كأنموذج لهذه الدراسة، وتمثلت العينة في كتاب "وفيات الأعيان" لمؤلفه ابن خلكان أبي العباس المتوفى سنة 681هـ/1282م؛ حيث بيَّنت هذه الدراسة القيمة العلمية للكتب المغربية ودورها في دفع حركة التأليف المشرقية وإسهامها في كتابة تاريخ الأمة الإسلامية مشرقا ومغربا.

ومن بين أهمّ التوصيات التي نخرج بها هي دعوة المؤرخين المُحْدَثِين المغاربة إلى الاهتمام بالتراث المغربي في بلاد المشرق، من خلال القيام بعمليات تحقيقات جدِّية أو اختصار موسوعات تاريخية تراجمية مشرقية أوْلت اهتماماً بالأعلام المغاربة من شتى الطوائف وفي كل المجالات.

الكلمات المفتاحية: *المؤلفات المغربية؛ بلاد المغرب؛ بلاد المشرق؛ الموسوعات؛ ابن خلكان؛ وفيات الأعيان؛ التراجم؛ المصادر المغربية.*

* **المؤلف المرسل**

Abstract: This research aims to study the contribution of Maghreban sources to oriental literature and their role in writing general Islamic history.

One of the large translational oriental encyclopedias was used as a model for this study, and the sample was represented in the book “Wafayat Al-Ayʿne” of Notables" by “Ibn Khallikân” Abi Al-Abbas, who died in 681 H / 1282 AD; Where this study showed the scientific value of Maghreban books and their role in pushing the Levantine authorship movement and its contribution to writing the history of the Islamic nation in the East and West.

Among the activities that we take out, the help with it is the call to the modern Maghreban historians to pay attention to the Maghreb heritage in the countries of the East, by doing printing, history, and history, an oriental translation, which paid attention to the media, the various sects and in the fields.

Keywords: *Maghreban literature; Oriental literature; Ibn Khallikân; Wafayat Al-Ayʿne; Maghreb sources; Maghreb; encyclopedias; translations.*

مقدمة:

عرفت بلاد المغرب الإسلامي حركة تأليف واسعة شملت جميع المجالات، حيث ألّف المغاربة العديد من الكتب المتنوعة ابتداء من القرن الثالث الهجري/9م.

خلال العصر الوسيط انتقل الكثير من تلك المؤلفات المغربية إلى بلاد المشرق، وهناك حَظيّت باهتمام واسع من قِبَل المُؤَرخين المشارقة، الذين انكبُّوا على دراستها ثم استعمالها كمادة أولية لإنتاج موسوعات تاريخية ضخمة، نظرًا لما حَمِلته في طياتها من معلومات قيّمة.

آثرنا اختيار أُنْمُوذج التراجم العامة التي هدفت إلى تخليد أمجاد الأمة الإسلامية مشرقاً ومغرباً، واستغلالها بهدف تبيان مُساهمة مؤلفات المغاربة في المصادر التاريخية المشرقية، والإشادة بدورها الذي لا يُستهان به في حركة التأليف الإسلامية، ولعلَّ أبرز أنواع هذه المؤلفات وأشهرها "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" لابن خلكان المتوفى سنة 681هـ/1282م.

اخترت هذا الكتاب مصدراً لهذا المقال كونه موسوعة تعكس حجم البيبليوغرافيا المغربية المُستخدمة فيه، وعليه فإن الإشكالية العامة التي يعالجها هذا الموضوع تتمحور

حول: كيفية انتقال أمهات المصادر المغربية إلى البلاد المشرقية في العصر الوسيط! ومدى استفادة المشارقة من مؤلفات المغاربة في تدوين مؤلفاتهم؟.

وللإجابة عن هذه الإشكالية اتّبعت خطة بحث تتضمّن أربعة محاور كبرى هي: المصادر المغربية في بلاد المشرق – طرق وأساليب انتقالها، التعريف بابن خلكان ومكانته العليمة، دراسة كتاب وفيات الأعيان، المصادر المغربية في وفيات الأعيان، وفيما يلي تفصيل لهذه الخطة:

1. المصادر المغربية في بلاد المشرق - طرق وأساليب انتقالها:

بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب تحققت الوحدة السياسية بين الطرفين المغربي والمشرقي في إطار الدين الإسلامي، وارتبطت بلاد المغرب بالخلافة الإسلامية في المدينة المنورة أولا، ودمشق ثانيا، وبغداد ثالثا وأخيرا (يحي بوعزيز، 1993، ص2-3)، وكان أهم شيء قدَّمهُ الإسلام الوافِدُ الجديد إلى إقليم المغرب هو: وحدة اللغة والعقيدة.

أصبح في إقليم المغرب الإسلامي مراكز ثقافية حضارية تهيِّأ فيها جو الاجتهاد وأَخصَب فيها الفكر فأنجبت علماء في شتى الميادين: الأدب والفقه وعلم الكلام والتاريخ.

رغم أن رُواد المغرب نهلوا زادهم الفكري من المشرق الإسلامي في البداية، إلاَّ أنَّهم لم يَقفُوا على ما كان مَحصوراً في تلك البلاد، بل تطوّر الأمر إلى اعتماد الذات في البحث والمشاركة والتأسيس للعلوم، وفيما يخص تدوين تاريخ بلاد المغرب الإسلامي فقد كان المشارقة هم السَبَّاقُون لتدوين أخباره في العهود الإسلامية الأولى (المنوني، 1983، ج1، ص17).

لم يكتف مؤرخو المغرب بنقل بضاعة المشارقة وتداولها فقط، بل ساهموا بدورهم في كتابة تاريخ بلادهم خاصة والتاريخ الإسلامي عامة، وتفنيد أو إثبات بعض الروايات المُتداولة، وإبداء آرائهم في مسائل حساسة، ومحاولة الإتيان بمناهج جديدة مثلما استفاض

به "ابن خلدون" في مقدمته، وكذا التماس نوع من الخصوصية في كتب التراجم والصلات وكتب الفهارس والبرامج خاصة في بلاد الأندلس.

وُجدت مؤلفات المغاربة في بلاد المشرق ودليل ذلك ما حملته المصادر المشرقية من مادة خام في طيّاتها؛ ومن هنا تكمن الانطلاقة لمحاولة رصد طرق وأساليب تواجد المخطوطات المغربية في بلاد المشرق.

1.1 رحلات الحج

كان المغاربة في شوق دائم إلى الرحيل إلى بلاد المشرق الإسلامي لأداء فريضة الحج، وزيارة قبر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والأماكن المقدسة، وبذلك فقد شكَّل الدافع الدِّيني المُحرّك الأساسي لانتقال المغاربة إلى المشرق (حطيط، 2003، ص276).

كان ركب الحاج المغربي يضم أعداداً وافرة من العلماء والطلبة (عبد العزيز الضعيفي، 2003، ص384)، الذين كانوا ينقلون معهم في هذه الرحلة الطويلة الكتب لدراستها، وكمُؤنس لهم في غربتهم، وغير مُستبعد أنَّهم كانوا يقومون بِبَيعها عند الحاجة في المدن التي كانوا يمرُّون بها ببلاد المشرق.

2.1 الرحلة العلمية إلى بلاد المشرق

إذ بواسطتها يتمكن الطالب من الاتصال المباشر بالشيوخ في بلاد المشرق الإسلامي لطلب العلم أو الاستزادة منه، والحصول على الإجازات من كبار العلماء، وسماع الروايات وحفظ الأسانيد، إضافة إلى الاطِّلاع على المصنّفات العلمية والأدبية المشرقية، ولذلك اعْتُبرت الرحلة العلمية ضرورية لمن يرغب في تقوية شخصيته العلمية واكتساب مكانة محترمة في أوساط المثقفين، وكان الرَّحالة المغاربة ينقلون معهم كتبهم وكتب غيرهم من علماء المغرب إلى المشرق، وذلك إمَّا للرجوع إليها ومطالعتها، وإما لإهدائها للشيوخ المشارقة الذين كانوا يقصدون لقائهم (عبد العزيز الضعيفي، 2003، ص385-400).

لا شك أن كثيرا من هذه الكتب قد ضاعت بالمشرق بفعل عدة عوامل منها: تعرض الرَّكب المغربي للنّهب خاصة بعد سقوط الخلافة الإسلامية ببغداد سنة 656هـ/1258م، والحروب الصليبية فيما بعد.

3.1 التبادل التجاري

كان التجار يحملون ضمن بضائعهم الكتب العلمية من المغرب إلى المشرق (الضعيفي، 2003، ص400)، وقد كانت هذه التجارة مُربحة لأن زبائنها كثر ويختلفون عرقاً وديناً ومكانةً، حيث نجد: السلاطين والأمراء والعلماء والطلاب وحتى من عامة الناس، فالعلم لا ينحصر في فئة معينة، وبذلك فقد تداول المشارقة المؤلفات المغربية المتنوعة واعتمدوا عليها في تأليف كتبهم.

من أشهر كتب التراجم المغربية بالمشرق: "تاريخ علماء الأندلس" لـــ"ابن الفرضي" المتوفى سنة 403هـ/1012م، "جذوة المقتبس" لمؤلف "الحميدي" المتوفى سنة 488هـ/1095م، "الصلة" لصاحبه "ابن بشكوال" المتوفى سنة 578هـ/1182م، إضافة إلى كتب الرحلات ومنها "رحلة العبدري" المتوفى حوالي 720هـ/1320م.

4.1 العلماء المشارقة بالمغرب

على الرغم من رحيل علماء المغرب والأندلس إلى بلاد المشرق، فإن ذلك لم يمنع قدوم علماء مشارقة إلى المغرب لتلقي العلم من علمائه (عبد الفتاح، 2013، ص218)، والاستفادة ممّا تحتوي عليه المكتبات العامة والخاصة من مصنفات علمية، ومنهم من اقتنى الكتب وحملها معه إلى المشرق أو استنسخها أو أُهديت له، ومن العلماء المشارقة بالمغرب ممن ترجم لهم ابن خلكان وثيمة ابن الفرات[1] الذي دخل الأندلس تاجرا (ابن خلكان، د.ت، تحقيق: إحسان عباس،ج6، ص12-13؛ طاهر منصور، 2019، ص137)

5.1 الوقف

قام الكثير من العلماء المغاربة الذين تواجدوا بالمشرق إما لطلب العلم أو للحج بوقف كتبهم في: المكتبات والخزانات العامة، ومنهم: أبو الطيب السبتي المالكي المتوفى سنة 695هـ/1295م الذي أقام بقوص[2] سنين كثيرة، ويذكر الصفدي "أنه وقّف كتبه بخزانة بالجامع، وهو الذي أدخل شرح "ابن أبي الربيع" إلى مصر" (الصفدي، 1420هـ/200م، ص7-8).

6.1 الرد على المشارقة

من بين الأسباب التي أدت إلى تواجد الكتب المغربية بالمشرق حُب التفوق لدى المغاربة على المشارقة حيث كان هاجسهم الذي عملوا بقوة لتحقيقه (كساس صفية، 2011م، ص234)، ولذلك عمدوا إلى ترويج مؤلفاتهم لإثبات إسهاماتهم في بناء صرح الحضارة الإسلامية.

كما كان **للمراسلات** دور كبير في نقل الأخبار وحتى المعارف إلى المشرق الإسلامي (صفية كساس، 2011م، ص250-251)، وبخاصة منها الرسائل الرسمية التي كان يستفيد منها مؤرخو البلاط في تدوين كتبهم.

2. التعريف بـــ "ابن خلكان" ومكانته العلمية:

هو أحمد بن محمَّد بن ابراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البَرْمكي[3]، يكنى: أبا العَباس، ويلقب: شمسُ الدين، ويُعرف بابن خلكان.

ولد يوم الخميس11 ربيع الأول سنة ثمان وستمائة/1211م بمدينة إربل[4] بمدرسة سلطانها الملك المعظم "مظفر الدين ابن زين الدين"[5].

نشأ في "المدرسة المظفرية" محاطاً بالعلماء والفقهاء والمحدثين والقراء، أين كان يقطن والده "محمد"[6] ، حيث كان المدرسون يقطنون في المدارس التي يُقْرِءون بها، وبذلك تربَّى في بيت من بيوت العلم، قال الأسنوي: "بيته كما تراه من أجلِّ البيوت، ولكن يلعب

الدهر بناره ما بين لهيب وجنوت، ويقلب بيد كارهٍ ما بين ظهور وخفوت" (ابن خلكان، د.ت، تحقيق: إحسان عباس، ج1، ص19؛ ج2، ص344-345؛ حسن شميساني، 1990م، ص33-34؛ الأسنوي،1987م، ص650).

ارتحل ابن خلكان لطلب العلم والمعرفة بين البلدان، فزار "الموصل" وكان كثير التردد عليها لقربها من مدينة "إربل" ثم "حلب"، ورحل منها سنة 632هـ/1234م إلى "دمشق"، ثم عاد إلى "حلب" ليغادر منها نهائيا سنة 635هـ/1237م بعدما أصبحت "الشام" مهددة بغزو "التتار"، ودخل "القاهرة" ثم "الإسكندرية"، ثم عاد إلى "القاهرة"، وفي مصر اشتغل وتزوج (ابن خلكان، د.ت، ج5، ص317- ج7 ص100؛ حسن شميساني، 1990، ص48).

أما عن شيوخه، فقد أخذ العلم من أفواه عدد كبير من الشيوخ، حيث تنوعت العلوم عنده، ومن أهم شيوخه الذين كان لهم الأثر البارز عليه:

- "أبو الفضل أحمد كمال الدين ابن منعة شرف الدين"[7]: كان قد خلف والده في المدرسة المظفرية، قال عنه ابن خلكان: "وما أذكره إلا وتصغر الدنيا في عيني".

- "أبو البقاء يعيش"[8]: قرأ عليه النحو وكتاب "اللمع" لـــ "ابن الجني".

- "تقي الدين ابن الصلاح": يقول ابن خلكان" قدمت عليه في أوائل شوال سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وأقمت عنده بدمشق ملازم الاشتغال مدة سنة"، ولم يذكر المواد التي درسها عنه.

ارتبطت حياة ابن خلكان العلمية بحياته العملية، فأول ما اشتغل به في مصر نيابة القضاء، حيث كان نائبا عن "بدر الدين السنجاري"[9]، ثم تم ترقيته إلى منصب قاضي، حيث ولي قضاء "المحلة"، ثم دخل "الشام" في ذي الحجة سنة 659هـ/1260م متولياً منصب قاضي القضاة، ووليّ قضاء الشام في البداية منفرداً ثم أقيم معه ثلاثة قضاة. (حسن شميساني، 1990، ص59؛ ابن خلكان، د.ت، ج1، ص109؛ ج6، ص162؛

ج7ص48؛ ج3، ص244؛ الصفدي، 2000، ج7، ص308-309؛ السبكي، 1964، ج8، ص33؛ الأسنوي، 1987، ص239؛ ابن قاضي شهبة،1979، ج2، ص213؛ النعيمي، 1988،ج1، ص192).

كما عمل ابن خلكان في التدريس بدمشق ومصر، وعن امتهانه التدريس ذكر ابن كثير: "وقد درس ابن خلكان في عدة مدارس لم تجتمع لغيره" (النعيمي،1988، ج1، ص192؛ ابن كثير، د.ت، ج13، ص301).

إضافة إلى المناصب الأخرى التي كان يتولاها بحكم منصبه الأول (قاضي القضاة) مثل: النظر في الأوقاف والجامع الأموي والمارستان والفتيا.

أمّا عن آثاره، رغم غزارة كتابات "ابن خلكان" إلاّ أنّه لم يصلنا من كتبه العديدة إلّا كتابا واحدا، وهو "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان".

توفي "ابن خلكان" يوم السبت 26 رجب سنة 681هـ/1282م بالمدرسة "الجمالية النجيبية" بـــــــ "دمشق" (ابن خلكان، د.ت، تحقيق: إحسان عباس، ج4، ص ط).

3. دراسة كتاب وفيات الأعيان:

ألف ابن خلكان في حقل التراجم الذي يسعى إلى تخليد أمجاد رجالها ونسائها البارزين الذين يَخْتَلِفُون في رسالتهم ومهنتهم في الحياة.

يعدُ كتاب "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ممّا ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان" موسوعة تاريخية تراجمية على امتداد سبعة قرون، ويمكن حصرها عامة من عصر التابعين إلى العصر المملوكي (محمد عبد الغني حسن، د.ت، ص40؛ محمد زمري، د.ت، ص25-51).

أُلف هذا الكتاب بالقاهرة، وانتهى صاحبه من تأليفه حسبما ذكر في خاتمة "وفيات الأعيان" يوم الإثنين 22 جمادى الثانية 672هـ/1273م (ابن خلكان، د.ت، ج1، ص21).

كما قام عدد من المؤرخين بوضع تذييلات له، نذكر منهم:

- "فضل الله بن فخر الصقاعي" في كتابه "تالي وفيات الأعيان"، وترجم فيه لمن توفي بـــــ "مصر" و"الشام" من سنة 666هـــ/1267م إلى سنة 725هـــ/1324م (أحمد محمد الحوني، د.ت، ج3، ص648).

أما عن الذين قاموا باختصار الوفيات، هم: ابنه "موسى بن خلكان" وسماه "المختار من وفيات الأعيان"[10]، والشيخ "بدر الدين حسن بن عمر بن حبيب الحلبي" المتوفى سنة 779هـــ/1714م، وسماه: "معاني أهل البيان من وفيات الأعيان" (حسن شميساني، 1990، ص108-109؛ حاجي خليفة، د.ت،ج8، ص2018).

وعن تعداد نسخ الوفيات التي اهتم المؤرخون بنشرها وطبعها(بتحقيق أو دون ذلك) بلغ عددها عشر طبعات، افتتح مسارها المستشرقون، واختتم ذلك المؤرخون العرب المُحدَثُون[11].

كما ترجم الوفيات إلى عدة لغات: "الفارسية"، "الفرنسية"، "التركية" و"الإنجليزية" باسم "تراجم المشهورين في الإسلام". (حاجي خليفة، ص2018؛ ألدور ميبلي، 1962م، ص69؛ يسرى عبد الغني عبد الله، 1999م، ص78).

يُصرَّح "ابن خلكان" عن الدافع من وراء تأليف هذا الكتاب قائلا: "هذا مختصر في التاريخ دعاني إلى جمعه أني كنت مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولي النباهة، وتواريخ وفياتهم وموالدهم ومن جمع منهم من كل عصر..."، وعليه فقد انطلق "ابن خلكان" من رغبة ذاتية، وولع وإعجاب بمشاهير النّاس لذلك سماهم "أولي النَّباهة"، فدافع تأليفه حِسٌّ مؤرخ قد وعى بتطورات الأمة الإسلامية بخاصة إذا ربطنا ذلك بأحداث عصره، فتأليفه لم يكن بطلب من صديق أو مشورة خليل، ولا ليتقرب به إلى ملك أو سلطان، وإنَّما أراده تذكرة لنفسه كما قال: "وجعلته تذكرة لنفسي" (ابن خلكان، د.ت، تحقيق: إحسان عباس، ج1، ص19-20).

وعليه فإن موضوع كتاب "وفيات الأعيان": تراجم لطائفة من الرجال يختلفون صناعة وطبقة وعصرا ومكانا، ولكنهم يتحدون في صفة واحدة تجمعهم هي صفة الجدارة والاستحقاق بأن يُترجم لهم وتدون سيرهم، حيث يضمُّ هذا الكتاب الفقيه والمحدث، والشاعر والأديب والحكيم والقاضي، والطبيب والفيلسوف، والأمير والخليفة والقائد، والمُوالين والمُعارضين، ويجتمع فيه المغربي والمشرقي بغض النظر عن اختلاف أوطانهم (حسن، د.ت، ص40).

ويختلف عدد التراجم على اختلاف نسخه، حيث ذكر حاجي خليفة أنه يشتمل على 846 ترجمة (خليفة،ج2، ص2018).

أما عن المنهج العام للكتاب: فقد حدّد "ابن خلكان" منْهجه في مُقدمة مُؤَلفه، فاختار ترتيب تراجمه وفق أسماء المُترجم لهم وبذلك اختار طريقة الترتيب الهجائي، فلم يفرِّق بين طوائف الناس بل أخضعهم لرابطة الحروف.

كما كان له منهج خاص بالترجمة الواحدة فقد أضفى على مؤلفه مُقيدات التزم فيها الدِّقة والصرامة للأشخاص والأماكن والألفاظ، وتعمَّد ضبطها ضبطاً معجمياً بالحروف لا بالحركات، وكثيرا ما كانت تقترن الترجمة الأم بترجمة أو عدة تراجم عارضة لارتباطها بالشخصية الأولى، وبذلك سجَّل محاولة الخروج من التقليد إلى الابتكار.

لعل ذلك ما دفع "محمَّد محيي الدين عبد الحميد" لمَّا قام بتحقيق الوفيات إلى القول أن: "كتاب الوفيات تاريخ تراجم بناه صاحبه على الأشخاص ولم يبنه على الأحداث" (ابن خلكان، 1948، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج1، ص7)؛ ويبدو أنَّ "ابن خلكان" انطلق من فكرة التأريخ لتراجم لكن مع مرور الوقت حاول تجسيد فكرة التأريخ العام، فربما أراد تحويل مسار كتابه مثلما صرح بذلك، فتجده يُؤرخ لدولة كاملة بطريقة غير مباشرة يربطها بعنوان شخصية واحدة في إطار استطراد الأحداث والتراجم العارضة.

تتجلّى شخصية "ابن خلكان" المُؤرخ في عملية التحقيق، فلما يترجم للرجال يُثبت ويعارض رواية برواية، ويُعقِّب على الروايات المختلفة بترجيح إحْداها كما فعل في ترجمة ابن رشيق القيرواني(ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، ج2، ص18).

أما عن أسلوبه في هذا الكتاب فـــ"ابن خلكان" يُعد من أدباء عصره الأوائل فقد التزم بشروط التأليف المتعارف عليها، أما الأسلوب الأدبي فقد استعمل أسلوبا مرسلاً بعيدا عن التكلف، فلم يسجع ولم يستعمل المحسنات البديعية أو ما شابه حتى في المقدمة، مما يعني أن ذلك لم يكن أمراً فرضه نوع من التراجم، واستعمل مصطلحات مبسطة بل حاول تبسيط الصعب منها.

وبالنسبة لأعلام بلاد المغرب المترجم لهم فتجد رجالاته على اختلاف انتماءاتهم ومهامهم، بداية من: عصر الفاتحين، ثم الولاة، فالدولة العبيدية (الفاطمية)، ثم الدولة الصنهاجية، وترجم لكثير من رجالها، فالمرابطين وأخيرا الموحدين؛ وكذلك الأمر بالنسبة للأندلس من فتحها مرورا بعهدي الإمارة والخلافة، ثم فترة ملوك الطوائف، إلى غاية عهد الحُكم الموحد للمغرب والأندلس على عهد المرابطين والموحدين، وسواء كانوا أعلام حرب وسياسة، أو رجال علم وثقافة؛ وتمثل هذه التراجم تاريخ الدول التي قامت ببلاد المغرب والأندلس إلى عصر ابن خلكان.

4. المصادر المغربية في وفيات الأعيان:

أخذ "ابن خلكان" عن المغاربة والأندلسيين الكثير من المعلومات التاريخية ودوّنها في مؤلفه هذا، حتى أصبحت لا تكاد تخلو ترجمة مغربية أو أندلسية على مرِّ سبعة قرون من معلومات نقلها من مخطوطات مغربية، كما وأنه لا بدّ من الإشارة إلى تنوع هذه المصادر التاريخية فتجد كتبا تاريخية متخصصة وعامة، و كتب التراجم والصلات، والبرامج والفهارس، وكتب الأنساب، وحتى المصادر الأدبية والفقهية والطبية، وهذه الكتب منها الموجودة ومنها المفقودة، ولتتضح الصورة أكثر لابد من أن نتطرق إلى

المصادر المغربية التي نقل عنها ابن خلكان مؤلفيها، ونذكر التراجم التي استحضر "ابن خلكان" فيها المادة التاريخية المغربية، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

- تاريخ القيروان: لمؤلفه "عبد العزيز بن شداد الصنهاجي"، وعنوان الكتاب كاملا "الجمع والبيان في أخبار القيروان ومن كان فيها من سائر المغرب من الملوك والأعيان"، وهو من المصادر المفقودة التي نقل عنها المؤرخون المتأخرون(المقريزي، 1987م، ص53 من الهامش)، وقد اعتمد عليه في ترجمة أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب "عبيد الله المهدي"، و"المهدي ابن تومرت" صاحب الدعوة الموحدية والعلامة "مكي ابن أبي طالب"[12].

- كتاب العقد الفريد: لـــــ "أبي عمر أحمد بن عبد ربه بن حبيب بن حيدر بن سالم" المتوفى سنة 328هـ/939م، يتضمن هذا الكتاب التاريخ السياسي للأندلس من فترة "عبد الرحمن الداخل" إلى عهد "عبد الرحمن النَّاصر"، وكان مصدراً لـــــ "ابن خلكان" في عدة مواضع خاصة ما يتعلق بالأدب في شخصية "الوزير ابن الزيات"[13] مثلا، والتاريخ السياسي في شخصية "الحجاج بن يوسف الثقفي"، و"الحسن بن علي بن أبي طالب" رضي الله عنهما.

- طبقات الأطباء والحكماء: لـــــ "ابن جلجل" وهو "أبو داود سليمان بن حسان" الأندلسي المتوفى بعد سنة 348هـ/959م.

يُعتبر هذا الكتاب وثيقة هامة في تاريخ العلوم، وتطور حركة التأليف والترجمة في القرن الرابع الهجري، و"ابن جلجل" هو أول أندلسي ألف في هذا الموضوع، ورتَّبه صاحبه على تِسع طبقات، ولكل طبقة عنوان خاص، وهو أهم مصدر يؤرخ للأطباء والحكماء في العالم، استعمله مرة واحدة لما ترجم لـــــ "ابن زكريا الرازي"[14].

- تاريخ علماء الأندلس: لـــــ "أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي" المعروف بـــــ"ابن الفرضي" المتوفى 403هـ/1012م.

يعتبر هذا المصدر من أهم كتب التراجم حيث يتضمن 1649 ترجمة لأشخاص من مختلف مدن الأندلس بدءًا من الفتح الإسلامي وحتى نهاية القرن العاشر، واعتمد عليه في ترجمة "وثيمة ابن الفرات" لما دخل الأندلس.

- نقط العروس في تواريخ الخلفاء: لـــــ "أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم" الأندلسي المتوفى سنة 456هـ/1063م.

يحتوي هذا المؤلف على معلومات مقتضبة عن خلفاء المسلمين في المشرق والمغرب وحكامهم مُرتبة على شكل فصول بحسب قواسم مشتركة، وأخذ عليه مرة واحدة فقط لما تعرض لشخصية "هشام المؤيد" كترجمة عارضة لما ترجم لـــــ"المعتمد ابن عباد" ملك إشبيلية.

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: لـــــ"أبي الحسن علي ابن بسام الشنتريني" المتوفى سنة 542هـ/1147م، يعتبر هذا الكتاب موسوعة أدبية تاريخية تضمّنت تراث القرن الخامس الهجري/11م في أربعة أقسام تضم عصري الخلافة وملوك الطوائف، وهو كتاب أدبي، وقد نقل عليه أكثر الشعراء المغاربة والأندلسيين، مثل: ترجمة الشاعر "الحصري القيرواني"[15] و"ابن زيدون المخزومي" الأندلسي[16]، و"ابن صارة الشنتريني"[17].

- معجم السفر للسلفي: لمؤلفه "أبي طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم سلفة" المتوفى 573هـ/1177م.

رتبه صاحبه على حسب حروف المعجم، واسْتَشهَدَ به "ابن خلكان" مرتين في مؤلفه في ذكره لترجمة "صلاح الدين الأيوبي" والعالم المغربي "القابسي"[18].

من خلال هذه النماذج التي سُقناها في إطار ما استفاده المشارقة من المغاربة، يتّضح جلياً أن مُؤرخي المشرق قد وجدوا ضالتهم في المخطوطات المغربية، فقد بذل "ابن خلكان" كأنموذج قصارى جهده من أجل استغلال المادة العلمية الموجودة بها، وممَّا لاحظناه على صاحب كتاب "وفيات الأعيان" لمَا يستقي معلوماته من أصول مغربية:

- فيما يخص الإحالة إلى المصدر يذكر اسم المُؤلف ومؤلفه في أغلب الأحيان، ومثال ذلك لما تعرَّض لترجمة ابن زكريا الرازي قال: "ذكر ابن جلجل في تاريخ الأطباء أنه دبر مارستان... " (ابن خلكان، د.ت، تحقيق إحسان عباس، ج5، ص157).

- توظيف المصادر المغربية في أماكنها الصحيحة، فالكتب الأدبية مثل: كتاب "الأنموذج" لابن رشيق و"الذخيرة" لابن بسام اعتمدا عليهما في ترجمة الأدباء والشعراء.

- المادة العلمية المستقاة من أصول مغربية كان الاستشهاد بها فيما يخص التراجم المغربية والأندلسية، وكذا الأعلام المشارقة الذين دخلوا بلاد المغرب، وحتى تراجم شخصيات مشرقية لها وزن في التاريخ الإسلامي وكان للمغاربة كلمة في ذلك فقيدوها في مؤلفاتهم.

- قد يستخدم ابن خلكان المصدر مرة، وقد يعيد استخدامه عدة مرات على حسب حاجته للمادة العلمية الموجودة به، ونجد تكرار استخدامه للمصدر في تراجم أعلام المغاربة أكثر.

كما أنَّ كتب التراجم الأندلسية وما تتميز به من خصوصية منهجية لم تكن عائقا لـــــــ "ابن خلكان"، الذي أحسن الاطلاع عليها عموماً فوجد فيها مادة علمية تخصُّ أحداث تاريخية مشرقية فاستغلها في تراجمه، وكأنَّ تلك الكتب كانت حافظة لمعلومات يتشوَّق إليها رُواد مُؤَرخي المشرق.

كما أسهم "الوفيات" بدوره في كتابة شتى أنواع المؤلفات المشرقية والمغربية، حيث اعتبر هذا المؤلف مورداً مهمًّا للعديد من الكتب التاريخية والموسوعات التراجمية، واعتمد عليه جملة من المؤرخين المشارقة والمغاربة الذين أكثروا النقل عنه، نذكر منهم:

- "الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان" (ت 748هـ/1347م) في مؤلفه "سير أعلام النبلاء" وقد أكثر النقل عنه.

- "السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري" (ت911هـ/1505م) في كتابه "نظم العقيان في أعيان الأعيان" في ثلاثة مواضع.

- "المقري أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن العباس التلمساني" (ت 1041هـ/1631م)، في موسوعته الأدبية "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب" وقد أخذ عن "ابن خلكان" في عدّة مواضع متفرقة.

خاتمة:

إنَّ أهم شيء لفت انتباهنا في هذه الورقة البحثية هو الثقة والاطمئنان التي نجد "ابن خلكان" يضعها في الأصول المغربية، فقد كان يُسلِم بما تحمله في طياتها حتى فيما يخصُّ تاريخ المشرق هذا يُحيلنا إلى المكانة التي تبوأتها المخطوطات المغربية في بلاد المشرق عن جدارة واستحقاق ذلك لأنها وُضعت لغايات نبيلة.

- انتقال المؤلفات المغربية التي كانت تحمل تراثا مغربيا هائلا في شتى أنواع الفنون والعلوم، حيث حفلت المؤلفات المشرقية بعدة نُقُولات عنها وتَمظْهَرَت بالتنوع المصدري، كما أنها عوَّضتهم عن نفس المعلومات المُتوارثَة المَأخُوذة من أصول مشرقية.

- لم تكن الكتب المغربية أقل شأناً من نظيراتها المَشْرقية، فقد أُعْجِبَ هؤلاء بنوعية المادة الموجودة بها، فلولا قيمتها لما لفتت انتباه المؤرخين المشارقة، الذين كانوا يحرصون كل الحرص على الاستزادة من المؤلفات المغربية.

- تُمثِّل بعض المصادر المشرقية ابتداءاً من منتصف القرن الثالث الهجري وعاء تتراكم فيه أنواع المخطوطات المغربية وسائر ألوانها، إلى جانب أمهات المصادر المشرقية فشكَّلت بذلك فسيفساء الحضارة الإسلامية.

- إن لترويج الكُتب المغربية بالمشرق دور طلائعي في مجال تلاقح الأفكار ونشر المعرفة وتقوية ميدان التواصل الثقافي، فوجود مُؤلفات مغربية ضمن تاريخ المشارقة دليل على استمرار الوحدة بين القطرين المغربي والمشرقي.

كل هذا يؤكد أنَّ بلاد المغرب كانت وما تزال رافداً مهماً يُعد من أهم روافد الحضارة العربية الإسلامية مثلها مثل بلاد المشرق وغيرها من أقطار الأمة الإسلامية.

الإحالات (تعريف الأماكن والشخصيات):

[1]- أبو يزيد وثيمة بن الفرات بن الوشاء، صنَّف كتابا في أخبار الردَّة، توفي بمصر سنة 237هـ/851م. (ابن خلكان، د.ت، تحقيق: إحسان عباس،ج6. ص12-13).

[2]- قوص: مدينة كبيرة بمصر بالجهة الشرقة من النيل، تبعده سبعة أميال (الإدريسي،2002م،ج1، ص128).

[3]- البرمكي: نسبة إلى اسم وموضع، أما الاسم فهو أولاد أبي علي يحي بن خالد بن برمك، والموضع هو البرمكية محلة ببغداد وقيل قرية تسمى البرمكية فنسبوا إليها(ابن الأثير، 2000م، ص99؛ السبكي، 1984، ج2، ص33).

[4]- إربل: تقع هذه المدينة بالشاطئ الشرقي من دجلة، بقرب الموصل، ويعرفها ياقوت الحموي بقوله: "مدينة كبيرة وقلعة حصينة، تعد من أعمال حمص، وأكثر أهلها أكراد قد استعربوا"(الزركلي، 1980م، ج1، ص220؛ كامل سليمان الجبوري،2003م، ص241؛ الحموي،1964م،ج3، ص298).

[5]- خلَّد ابن خلكان مولده في إحدى تراجمه قائلا: " ومولدي يوم الخميس بعد صلاة العصر الحادي عشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين بمدينة إربل بمدرسة سلطانها الملك المعظم مظفر الدين ابن زين الدين" (ابن خلكان، د.ت، تحقيق: إحسان عباس، ج2. ص344-345).

[6]- الشهاب محمد: ولد في حدود سنة557هـ/1161م، ورحل في طلب الحديث إلى الشام ومصر والحجاز والعراق، وتفقّه بالموصل ثم ارتَحل إلى بغداد فتفقّه، ثم عاد إلى الموصل وتوجّه بعدها إلى إربل وصار مشاراً إليه في الفتوى، وله مكانة عند صاحبها، ودرَس بالمدرسة المظفرية، إلى أن توفي بإربل سنة 610هـ/1213م (الأسنوي، 1987م،ج7، ص237-238).

[7]- أبو الفضل أحمد ابن الشيخ العلامة كمال الدين أبي الفتح موسى ابن الشيخ رضي الدين يونس ابن منعة، إربلي الأصل، شرح كتاب " التنبيه" واختصر "إحياء علوم الدين للغزالي"، درَّس بالمدرسة المظفرية وتوفي سنة 622ه/1225م (ابن خلكان، د.ت، تحقيق إحسان عباس، ج1 ص308-309).

[8]- يعيش بن علي بن أبي السرايا بن محمد بن علي بن المفضل، موصلي الأصل، حلبي المولد والمنشأ ولدسنة 553هـ/1158م، وتوفي بها سنة 643ه/1245م. (ابن خلكان، د.ت، تحقيق: إحسان عباس، ج7، ص46-47).

[9]- أبو المحاسن يوسف بن الحسن بن بدر الدين السنجاري الشافعي، قاضي القضاة، توفي سنة 663هـ/1264م.(ابن العماد،1986م، ج7، ص544).

[10]- مُؤلف "المختار من وفيات الأعيان" محفوظ بمكتبة وزارة الهند بلندن.(شميساني.1990م، ص109).

[11]- آخر تحقيق لكتاب الوفيات هو من طرف: يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل1419هـ/1998م في خمسة أجزاء والسادس فهارس ويحوي 855 ترجمة.

[12]- أبو محمد بن أبي طالب بن حمو بن محمد بن مختار القيسي المقرئ، ولد بالقيروان، وتوفي سنة 437ه/1045م بقرطبة، عارف بالقراءات وعالم بالحساب، له عدة تآليف(ابن خلكان، د.ت، تحقيق: إحسان عباس،ج5، ص247).

[13]- أبو جعفر محمد ابن عبد الملك بن أبَّان بن حمزة المعروف بابن الزيات، وزير الخليفة العباسي المعتصم، توفي سنة233هـ/847م(ابن خلكان، د.ت، تحقيق إحسان عباس، ج5، ص94-100).

[14]- أبو بكر محمد ابن زكريا الرازي الطبيب المشهور، توفي سنة 311ه/923م.(ابن خلكان، د.ت، تحقيق: إحسان عباس، ج5، ص157-159)

[15]- الحصري القيرواني: أبو إسحاق ابراهيم بن علي بن تميم، توفي بالقيروان سنة413هـ/1022م. (ابن خلكان، د.ت، تحقيق: إحسان عباس، ج1، ص54-55).

[16]- أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي، شاعر مشهور توفي 463هـ/1070م باشبيلية (ابن خلكان، د.ت، تحقيق: إحسان عباس. ج1. ص139-140).

[17]- أبو محمَّد عبد الله بن محمد بن صارة البكري الأندلسي الشنتريني الشاعر، توفي بالمرية 517هـ/1223م (ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس. ج3. ص93-95).

[18]- القابسي: أبو الحسن علي ابن محمد بن خلف المعافري الفروي، إمام في علم الحديث ومتونه وأسانيده له كتاب يسمى" الملخص" ولد عام 324هـ/935م وتوفي عام 403ه/1012م. (ابن خلكان، د.ت، تحقيق: إحسان عباس، ج3، ص320-321).

قائمة المصادر والمراجع:

ابن الأثير، علي أبي الحسن. (1420هـ/2000م). اللباب في تهذيب الأنساب، تحقيق: عبد الطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت. ط1.

الإدريسي، محمد أبي عبد الله. (1422هـ/2002م). نزهة المشتاق في اختراق الأفاق. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة. ج1.

الأسنوي، عبد الرحيم جمال الدين.(1407هـ/1987م). طبقات الشافعية، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية. دار الكتاب. بيروت. ط1.

بوعزيز، يحي.(1414ه/1993م). مركز بجاية الحضاري ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوروبا. *مجلة الحضارة الإسلامية، المعهد الوطني العالي للحضارة الإسلامية. وهران. عدد 1.*

حاجي، خليفة. (د.ت). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. تحقيق: محمد شرف الدين يالتقايا. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

حسن، محمد عبد الغني.(د.ت). التراجم والسير، دار المعارف. القاهرة. ط2.

حطيط، أحمد. (1424ه/2003م). *مكانة المغاربة الاجتماعية بدمشق في زمن الحروب الصليبية. مجلة التاريخ العربي. جمعية المؤرخين المغاربة*. عدد 25.

الحوني، أحمد محمد.(د.ت) ، وفيات الأعيان لابن خلكان. تراث الإنسانية. مطابع كوستا توماس وشركاه. مصر.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد.(د.ت). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

ابن خلكان، أبو العباس، شمس الدين.(1367ه/1948م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.ج1.

الزركلي، خير الدين. (1980)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط5.

زمري، محمد. (د.ت). الأعلام المغاربة في مصنفات المشارقة. دار الغرب الإسلامي. وهران.

السبكي، تاج الدين أبي نصر.(1984/1383). طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. ج2.

شميساني، حسن. (1411هـ/1990م)، شمس الدين ابن خلكان أحمد ابن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر، دار الكتب العلمية. بيروت، ط1

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك. (1420هـ/2000م). الوافي بالوفيات. تحقيق واعتناء: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ط1. ج2.

الضعيفي، عبد العزيز. (1424ه/2003م). علاقة العلماء المغاربة بنظرائهم المصريين بين الاستفادة والإفادة نماذج من العصر المريني. *مجلة التاريخ العربي. جمعية المؤرخين المغاربة*.

طاهر منصور، خديجة. (2019) العلماء المشارقة ببلاد المغارب ودورهم في الحركة الفكرية (140-668ه/757-1269م). [رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية] جامعة وهران1 أحمد بن بلة. الجزائر.

عبد الغني عبد الله، يسرى.(1411ه/1999م). معجم المؤرخين حتى القرن 12هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح. (1406ه/1986م). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق. بيروت. ط1.

ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد الدمشقي.(1399ه/1979م). طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ عبد الحليم خان، دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد.

ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين. (د.ت). البداية والنهاية. مكتبة المعارف. بيروت. مكتبة النصر. الرياض. ط1.

كساس، صفية، (2011) نظام التدريس بالمراكز العلمية في المغرب العربي، *مجلة اللغة والاتصال، مختبر اللغة العربية والاتصال*، جامعة وهران، عدد 9-10، 2011م.

محمد عبد الفتاح، هبة الله .(2013). العلاقات الثقافية بين دولة الموحدين والمشرق الإسلامي (550 -650ه/1155-1252م). [رسالة ماجستير في التاريخ والآثار الإسلامية. كلية الآداب. جامعة الإسكندرية]، مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية.

المقريزي. أبو العباس تقي الدين.(1407هـ/1987م). المقفى الكبير. تحقيق: محمد اليعلاوي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط1.

المنوني، محمد. (1404هـ/1983م). المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. المملكة المغربية. ج1.

ميبلي، ألدور.(1381ه/1962م). العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي. ترجمة: النجار، عبد الحليم وموسى، محمد . مراجعة: حسين فوزي. دار القلم. ط1.

النعيمي، عبد القادر(1988م). الدارس في تاريخ المدارس. تحقيق: جعفر الحني. مكتبة الثقافة الدينية بحيدر آباد.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله.(1397هـ/1964م). معجم البلدان، دار صادر، بيروت.